



## صراع الايديوغرافات:

## انتاج التحيز البلاغي في الخطاب التشريعي

## The conflict of ideographs in the October discourse and the production of rhetorical bias

صلاح حاوي\*

جامعة البصرة -العراق salahalshami15@yahoo.com

تاريخ الإرسال:

2020-09-23

تاريخ القبول:

2020-10-19

تاريخ النشر:

2021-06-02

**ملخص:** تعتمد هذه الدراسة في مقارنة الخطاب التشريعي على مصطلح "الإيديوغراف" وهو أحد المصطلحات النظرية في التوجهات البلاغية المعاصرة فهو يرتبط بإيديولوجية الجماعات ويستعمل من خلالها بلاغياً، وتتوزع صورة انتسابه بين البلاغة الناقدة والبلاغة التأسيسية، فالأولى تشغلها الهيمنة والايديولوجية، والثانية يشغلها خطاب تأسيس الجماعات، فالايديوغراف معطى بلاغي ايديولوجي يتحول من المتعالي الاصطلاحي الى الاستعمال الجماعي، وقد نظرنا في الإيديوغراف عندما يكون بؤرة صراع بين إيديوغرافيين مهيمينين على الخطاب التشريعي هما "الجوكر" و"الذيل" وانتقالهما من مرحلة الرمز الى مرحلة الاستعارة، ومن بساطة النقل القوة الادعاء، فضلاً عن البحث في كيفية تشكل الجماعات وهوياتها وبلا شك ان الهوية المشكّلة بفعل إيديوغرافات هذا البحث " الجوكر و الذيل " هي هوية افتراضية في أساسها عملت الجماعة المناوئة على جعلها هوية حقيقة ملتصقة بالجماعة المضادة.

**كلمات مفتاحية:** الإيديوغراف؛ الخطاب التشريعي؛ الجوكر؛ الذيل؛ البلاغة التأسيسية؛ الاستعارة؛ الرمز؛ الهوية؛ الجماعة.

\* المؤلف المرسل

**Abstract:** This study is based on the October discourse's approach on the term "ideograph", which is one of the theoretical terms in contemporary rhetorical trends. It is linked to the ideology of groups and uses through it rhetorically, and the image of its belonging is divided between critical rhetoric and foundational rhetoric, the first occupied by hegemony and ideology, and the second occupied by the discourse of establishing groups. The ideography is an ideological and rhetorical concept that transforms from conventional condescension to collective use. We have looked at ideography when the focus of conflict between the two dominant photographers of the October speech are the "Joker" and "The Tail" and their transition from the symbol stage to the stage of metaphor, and from the simplicity of the transmission power of the claim, as well as research regarding how groups are formed and their identities, there is no doubt that the identity that is Formed by ideograph this research "The Joker and the Tail" is a hypothetical identity in its foundation. The opposition group worked to make it a true identity linked to the opposing group.

**Keywords:** ideograph; October discourse; the joker; the tail; foundational rhetoric; metaphor ; symbol; identity.

### مداخل تعريفية

المدخل الأول: تظاهرات "تشرين / أكتوبر" من الاحتجاج الى الثورة: بدأت الاحتجاجات في الأول من تشرين الأول 2019 لتشكل تظاهراتها جسد الثورة الشبابية، وكانت إعتراضاً حاداً على انماط العمل الحكومي ونفسي الفساد في مفاصل الدولة، وحمل معه هذا الاحتجاج رفضاً للنظام السياسي والدعوة إلى استقالة رئيس الوزراء عادل عبد المهدي الذي ظهر في 3 تشرين الأول ليوجه خطابه الى المحتجين، قائلاً: (لا تسمحوا لدعاة اليأس أن يتغلبوا عليكم، ولا تلتفتوا الى دعوات العودة الى الورا، وإلى عسكرة الدولة والمجتمع من جديد، فقد ولت هذه الأوهام وعفا عليها الزمن، ودفعنا كشعب ثمنها غالباً من دماننا وثوراتنا ومستقبلنا) إذ بدا عبد المهدي يتبادل الحجج مع المحتجين ويعترض على خطاب التظاهرات مؤدياً دور الناصح عبر مجموعة من الحجج والنصائح، محاولاً ان يرمم صورته معتنياً بالإيتوس الخطابي\* عبر مجموعة من الصيغ الهادفة للإقناع: (وقد الزمت نفسي قبل الوزراء والمسؤولين بالتخلي عن المواكب



الطويلة.. نحن نريد ان نخدم ونعمل بإخلاص، وأعمالنا اليومية وجولاتنا الداخلية والخارجية جدية وهدفها تحقيق تطلعاتكم في البناء والاعمار والازدهار).<sup>1</sup>

توقفت التظاهرات مؤقتاً، لكنّ الاحتجاجات لم تتوقف يوم 8 تشرين الاول بسبب مراسم زيارة الاربعين، فأصدر عبد المهدي بياناً ثانياً يوم 9/ تشرين الاول خلاصته (وإذ نطوي اليومَ صفحةَ العنفِ، وإراقةِ دماءِ العراقيينَ، فإننا نفتحُ صفحةَ المراجعةِ الحقيقيةِ الشاملة).

ويجبُ أن تتمَّ عمليةُ المراجعةِ على مستويين: الإجراءاتِ العاجلةِ، والإصلاحاتِ الشاملة) إذ إن توقف التظاهرات يدلُّ على توقّف الشكل المادي للاحتجاج الذي لم يتوقف، أي أن مضامين الاحتجاج مستمرة، لكنّ شكله المادي " التظاهرات " هي التي توقفت إذ كانت المسيرة الاربعينية شاغلاً عفائدياً يسهم في تخفيف احتقان الوضع الاجتماعي المعترض، لكنّ يوم الجمعة 2019 /10/25 أخذت الاحتجاجات صورة جديدة، وتحوّلت من احتجاج شعبي الى ثورة مجتمعية على كل المستويات ومرافق الحياة في العراق، وشغلت مساحات مهمة في حياة الفرد العراقي، فما شهدناه من تغيير في المواقف والقيم والقوانين ما بين قبل اكتوبر وبعد اكتوبر كقيل بأننا نقول إنها ثورة تشرين ليست على مستوى النظام السياسي فحسب، بل على مستوى بناء الرؤية وانتاج الحدث الاجتماعي، بغض النظر عن استمراريتها أو انتصارها او فشلها؛ إذ ازاحت الكثير من التابوات والمهيمنات، والثورة - كما يرى هنتغتون- تغيير للقيم والمعتقدات المهيمنة على المجتمع<sup>2</sup>.

**المدخل الثاني: خطاب تشرين:** كيف يمكن ان يتشكّل الخطاب التشريني؟ أهو خطاب سياسي أم خطاب شعبي احتجاجي؟ يبدو أن خطاب تشرين هو أوسع من دائرة الخطابين السياسي والشعبي، لأنه مثلّ الكيفية التي حملت المضامين الاحتجاجية ومحمولات التفكير السياسي، ورؤى المحللين، عبر أكثر من مدونة يمكن للدارسين

والباحثين مراجعتها على المستويين أو النمطين (اللغوي / اللفظي، والمرئي) ويمكن حصرها بالخطابات الآتية:

1- خطابات السلطة، وتمثله بيانات رئيس الوزراء ورئيس الجمهورية وبعض رجال السياسة والسلطة.

2- خطابات الجماهير (من خطاب الإحتجاج إلى خطاب الثورة) وهذا يشمل هتافات وشعارات وبيانات.

3- خطاب المرجعية الدينية، وهو خطاب محوري وأساسي في تلك المرحلة، ويشكل انعطافاً مهماً في تاريخ ثورة تشرين.

4- خطابات الميديا، وهو ما تمثله البرامج السياسية ووسائل الإعلام.

5- خطابات التواصل الاجتماعي، تمثلت بـ (الفيس بوك، وتويتر وغيرها) لما تقدّمه من تفاصيل شديدة الأهمية وما تسهم به من تغيير وضع الاحتجاجات.

**المدخل الثالث: ما هو الإيديوجراف؟:** يرتبط مصطلح الإيديوجراف بالناقد

الاجتماعي البلاغي الامريكي مايكل كالفن ماكجي (Michal Calvin McGee) الذي كتب عام 1980 عن هذا المصطلح في دراسته (الإيديوجراف: الرابط بين البلاغة والايديولوجيا) مشيراً الى ضرورة دراسة الايديولوجيا من خلال الرسائل التي تعمل على اقناع الناس بقبول واقع الحياة، اذ كان مشغولاً بمدى تأثير الايديولوجيا على الحرية وإنتاج الوعي الزائف في المجتمع<sup>3</sup>، فهو يعتقد أن البلاغة والايديولوجيا كليهما يوصلاننا إلى النتيجة نفسها، وعلى وفق رؤية ماكجي فإنّ الاشخاص لا يؤثرون - بشكل مباشر - في الاعتقاد والسلوك، وإنما التأثير يتحقق بفعل مفاهيم المفردات التي يمكن وصفها تبريراً وسبباً للسلوك والمعتقد، فهو يقدّم بعض المفردات او الاصطلاحات مثل " الحرية، والدين، وسيادة القانون، والمساواة، والاستبداد، وغيرها" بوصفها إيديوجرافات لأنها تتضمن التزاماً وتعهداً ايديولوجياً وتمثيلاً لهذا الالتزام، فالإيديوجراف هو تصوير لكيفية



اجتماعية بشرية، على العكس من بعض المفاهيم الاكثر عمومية مثل " المطلق" و" الاله"<sup>4</sup> فهي مفاهيم متعالية، وما يريده ماكجي هي المفاهيم التي تحقق وظائف اجتماعية أكثر منها اخلاقية أو عقلائية. فالإيديوغراف-حسب رؤية ماكجي - مصطلح لغوي يختزل الايديولوجيا ويعبر عنها بطريقة بلاغية.

وفي عام 1997 وسّع الباحثان الامريكيان في البلاغة والاتصال Janis Edwards و Carol winkler مفهوم الإيديوغراف لينتقلا به من الوضع اللغوي الى الإيديوغراف المرئي في مقالتهما " النموذج التمثيلي والإيديوغراف المرئي" واجريا تحليلاً للصورة الأيقونية التي تمثل رفع العلم على قمة جبل Suribachi خلال معركة Iwo Jima واعترضا على منهج ماكجي McGee في معالجة الإيديوغراف، وبيننا ان التعبير اللفظي ليس وحده قادراً على ان يؤدي الوظيفة البلاغية للإيديوغراف، وبذلك توسّعا مدار العمل على الايديوغراف من المصطلحات اللغوية واللفظية الى المرئي والحكاية التمثيلية، وبدأ مع إدواردز ووينكلر الاهتمام بالرسوم والاعمال الفنية artifact.<sup>5</sup> وبذلك تحرّر فهم توظيف الايديولوجية من منطقة المفاهيم والمصطلحات الى تمثيل الايديولوجية في الرسوم والحكايات الرمزية.

**الايديوغراف في الخطاب التشريعي:** لا يمكننا ان ننصّر حركة المجتمع وتفكيره وبناء أنظمتة المعرفية من دون ان تكون هناك موجّهات قادرة على بناء هذه الانظمة والمساهمة في استمرارية الحركة المجتمعية، وثمة اشكال متعدّدة لهذه الموجّهات، فبعضها موجه ظاهر وآخر موجه خفي قادر على ان يتسلل داخل أنظمة الفكر الانساني، وقد تكون الإيديوغرافات واحدة من هذه الاشكال أو تمثلات الموجه الظاهر في وجوده اللفظي أو المرئي والقادر على ممارسة فعله ضمناً، ولذا فإنّ الإيديوغرافات موجودة وتعمل بقوة في الخطاب الواقعي غير المزيف، وتعمل كعوامل للوعي السياسي، بل هي أصبحت جزءاً من حياة الناس الواقعية.<sup>6</sup> لأنها تقدّم المعتقدات والسلوك

الاجتماعي عبر الممارسة البلاغية، لا بوصفها ممارسات تضليلية، بل تبريرية وتجزير استعمال السلطة، أي أن الإيديوغرافات ليس مصطلحات ذات دلالة سلبية تنقل الإيديولوجية الزائفة، أو تزيّف وتحزّف الإيديولوجيا الحقّة بلاغياً، بل هي فكرة مختزلة يعبر عنها لغوياً من خلال المصطلحات، ومرئياً من خلال بعض الاعمال الفنية " الجرافيتي أو الرسوم، أو المنحوتات" تمثّل انتماء مشتركاً لتوجه معيّن يبرر السلوك والمعتقد الذي قد ينظر له المختلف بأنه خارج النظام الطبيعي.

**كيف ظهر الإيديوغراف في خطاب تشريين؟: ثمة إيديوغرافات لغوية ومرئية شغلت مساحة مهمة في هذا الخطاب، بعضها انتجت السلطة لتعبر عن أيديولوجيتها مثل (سلطة القانون، نبذ العنف، التظاهر السلمي، حزم الاصلاح)، واخرى انتجت الجماهير، وسبق اختيارنا على نموذجين تمثيلين أخذاً موقعا متميزاً في انماط الخطاب التشريعي كافة وهما "الجوكر" و"الذيل":**

فما هو الجوكر؟ وكيف يمكن فهم دلالته الرمزية ليكون تعبيراً إيديوغرافياً؟

**مفردة الجوكر** هي مفردة انكليزية joker ولها معانٍ متعدّدة، فهي بمعنى المحبّ للمزاح والتكيت، أو ورقة اللعب الاضافية التي يمكن استعمالها بدلاً من أية ورقة أخرى<sup>7</sup>، كما أنّ الجوكر هو المهزج الذي يظهر في حفلات السيرك، وهدفه الاساس هو الاضحاك وادخال البهجة في قلوب المشاهدين.

**أمّا الذيل** فهي مفردة عربية وهي شيء يسفل في إطفاء، ومن ذلك ذيل القميص وغيره<sup>8</sup> ويبدو انها الاكثر ارتباطاً بالمفردة ثنائية الحروف أو مكررة الحرف الثاني " ذلّ" التي تدل على الخضوع والاستكانة، والذلُّ أيضاً خلاف الصعوبة، ولذا ربط ابن فارس بينهما فقال: ومن الباب ذلائل القميص وهو ما يلي الارض من اسافله.<sup>9</sup>



## تاريخ الجوكر في المرئي

- 1- أول ظهور لشخصية الجوكر كان عام 1940 في القصص الخيالية المصوّرة التي تنتجها شركة DC Comics دي سي كومكس الامريكية، وقدمتها القصصُ شخصيةً شريرةً تعبّر عن دور العدو اللدود لباتمان، يجمع بين الذكاء، والضحك، والاجرام.
- 2- انتقلت شخصية الجوكر من عالم القصة المصوّرة الى الشاشة عبر المسلسلات والافلام، والبداية كانت عام 1966 مع الممثل الامريكي سيزر روميرو في صراع مع باتمان عبر مسلسل تلفزيوني.
- 3- انتقلت العلاقة الضدية بين باتمان والجوكر الى السينما عام 1989 مع الممثل الامريكي جاك نيكلسون الذي أدى دور الشر والقتل.
- 4- وفي عام 2008 أدى دور الجوكر الممثل الاسترالي هيث ليدغر في فيلم "فارس الظلام" وكان أيضا شخصية شريرة قاتلة.
- 5- قدّم جاريد ليتو شخصية الجوكر في فيلم " الفرقة الانتحارية" وهم مجموعة من الأشخاص المسجونين الأكثر شرا على الأرض حينما يعقدون معاهدات مع الحكومة الفاسدة من اجل تنفيذ مهام شديدة الخطورة وبمقابل ذلك تحصل الفرقة الانتحارية على الأمان والحماية بالسجن وبعض المزايا الأخرى.
- 6- يعدُّ الفيلم الامريكي "الجوكر" النقطة المحورية الرابطة بين شخصية الجوكر والاحتجاجات الشعبية في العالم بشكل عام والعراق على وجه الخصوص، أدى الدور في هذا الفيلم الممثل "خواكين فينيكس" اذ يتحوّل فيه البطل من مهرج كوميدي فاشل الى قاتل، حتى يصير ايقونة شعبية للتظاهرات في مدينة غوثام، بعد أن ارتدى العديد من المتظاهرين زي المهرجين ونزلوا إلى الشوارع من أجل مواجهة النخبة الحاكمة في المدينة، وهم يرددون "سحقاً لكل الاغنياء، سحقاً لهذا النظام بأكمله" ثم يهتفون بشكل

متكرر "كلنا مهرجون" . فمع هذا الفيلم تنتهي صورة المهرج المضحك الى المهرج الراض والمحتج على القمع المجتمعي لينتقل من انتاج الكوميديا الى انتاج القتل.

### حياة الإيديوغراف " الجوكر " في الاحتجاجات الشعبية

ذكر تقرير عن قناة فرانس 24 الاخبارية أن المحتجين في تشيلي ولبنان وهونج كونج والعراق كانوا يضعون ماكياج المهرج "جوكر" في المظاهرات العامة احتجاجاً على فساد الحكومة والنخبة المهيمنة. أي أن قناع أو مكياج الجوكر صار إيديوغراف الغضب للاحتجاج الشعبي في العالم، وهنا لا بدّ من رسم مخطط لهذا التوظيف، ثم طرح سؤال الجوكر بين الإيديوغراف والترمز:

#### أولاً: في تشيلي

حدثت الاحتجاجات الشعبية في تشيلي منتصف اكتوبر 2019 التي جاءت بعد زيادة اسعار بطاقات المترو، وارتدى بعض المحتجين قناع " الجوكر " تعبيراً رمزياً لممارسة احتجاجاتهم التي رافقتها عمليات النهب وحرق المحال التجارية كما حدث في فيلم "الجوكر"



وصرّح الرئيس التشيلي سيباستيان بينيرا "نحن نخوض حرباً ضد عدو قوي وعنيد لا يحترم شيئاً واحداً وهو مستعد لاستخدام العنف والجريمة بدون حدود"



## ثانياً: لبنان

بدأت الاحتجاجات في لبنان يوم 17/ اكتوبر / 2019، بعد ان فرضت الحكومة ضرائب على البنزين والتبغ وغيرها من الضرائب على مواد اخرى، وتعدّدت وسائل التعبير عن الاحتجاج الشعبي في لبنان، فكان للجوكر نصيب منها، اذ ارتدى بعض الشباب المحتج قناع المهرج / جوكر وهو يعلن نفسه جزءا من هذه الاحتجاجات، بل ضمان حقيقي لوجودها واستمرارها، أو تحوّل رسوم الجوكر الى جرافيتي معبر عن حالات الاستياء من القتل والدعوة الى الثورة من خلال لوحات الفنانين على الجدران.



## ثالثاً: الاحتجاجات في العراق

ويبدو أن الجوكر في هذه الاحتجاجات هو الأكثر حضوراً ونفوذاً واستيعاباً للحدث الثوري، ولذا تحوّل من استعمال فردي الى إيديوجراف جماعي، ومن الاستعمال المرئي الى التداول اللفظي، ومن الجد الى السخرية، ومن الرفض الى حالة من اثبات الهوية.

وأول من وظّف قناع الجوكر وزيه الذي ظهر من خلاله في فيلم "الجوكر" 2019 في احتجاجات تشرين/ أكتوبر، شاب عراقي يبلغ من العمر 25 عاماً خريج كلية الفنون الجميلة، ووضع مقولة بطل الفيلم " آرثر فيليك" على حسابه الخاص في الأنستغرام:

Is it just me or getting crazier out there?

وهو السؤال ذاته الذي وجّهه بطل الفيلم "آرثر فيليك" الى الطيبة النفسية التي تحاوره، متسائلاً: "هل انا فقط من يشعر بذلك، ام أن الامور تزداد جنوناً في الخارج؟" وقد أجابته الطيبة "أن المدينة بالفعل غير مستقرة سياسياً في الآونة الاخيرة".

الحدث الاول للارتباط بالجوكر، الزمان الاحد: 13/ أكتوبر / 2019، المكان ساحة الاحتجاج في بغداد، أما الهاشتاك الذي طوّق صورته على الأنستغرام "أنقذوا الشعب العراقي"، ثم اعقبها بصورة متماثلة تماماً مع الشعور بالنصر عند بطل الفيلم آرثر فيليك وهو يرقص في وسط حرائق الاحتجاج:



### حياة الايديوغراف الثاني: الذيل

لم يكن عمر هذا المصطلح (الإيديوغرافي) ذا بعد زمني أو كان يشهد رواجاً قبل الاحتجاجات الشعبية في 2019، كما لم تكن له جذور مرئية قبل ان يتم تداوله لفظياً في الخطابات بشكل عام والشعبية منه خاصة، فهو المصطلح الذي يمثل الجهة المناهضة للجوكر، أو بمعنى آخر، الهوية السلبية الأخرى في قبال الهوية المصطنعة الجوكر.

لكنّ هناك علاقة تناسلية لهذا الإيديوغراف وعلاقته بايديوغراف آخر يرتبط بمراحل الاستعمار البريطاني وغيره وهو "الاذناب" اذ يمثل معادلاً أو ينتمي لمنظومة التوجه مع " الجاسوس الذي يعمل عند الانكليز، كما تبين بشكل ملحوظ في معاهدة صالح

جبر - بيفن (معاهدة برتسموث-1948) إذ كان من الهنقات المناهضة لهذه المعاهدة " فلتنسقط معاهدة برتسموث-ليسقط أذنان الاستعمار وخدمه)، وهذا لا يعني تطابق المدلول بين المصطلحي كما سنبيين ماذا يعني الذيل حسبما قدّمت احتجاجات تشرين مفهومه.

وقد ربط أحدُ المدونين على "الفيسبوك" تاريخَ الذيل بتاريخ العلاقة السياسية بين "عبد السلام عارف الرئيس العراقي حقبة الستينيات، والرئيس المصري جمال عبد الناصر" قائلاً: "إن عبد السلام محمد عارف كان أول ذيل سياسي، إذ كان ولائه لسيدته جمال عبد الناصر، أكثر من ولائه لوطنه، ووضع اللبنة الأولى للذيول وتبعه كثير من سياسيي الصدفة في وقتنا الحاضر والذين أصبحوا يتباهون بذلك هم وعبيدهم من صانعي وعابدي الأصنام.. لكنّ هذا المصطلح لم يأخذ هذه الأبعاد الا في نظام العلاقة بين السياسيين العراقيين وبعض المجتمع العراقي وإيران، أي بحث نموذج علاقة تبعية توجيهية بينهما، ثم اتسعت عملية فهم هذا المصطلح ليشمل كل من اتبع غيره وصار جزءاً من توجهاته " ذيل إيراني، ذيل أمريكي، ذيل تركي، ذيل سعودي، وهكذا).

### صناعة الهوية- تشكّل الجماعة

مراجعة الذاكرة البلاغية يجعلنا امام وظيفتين رئيسيتين، يبدو انهما مهيمنتان حول المعرفة البلاغية، وهذه الهيمنة هي نتاج فعل الذاكرة، فما هاتان الوظيفتان؟ بكل تأكيد هما (وظيفتا الاقناع والتخييل).

يبدو أننا محبطون في تجاوز هاتين الوظيفتين، أو مستسلمون للإقناع والتخييل، ولم نتمكن من التفكير والبحث في وجود وظائف أخرى معرفية أو اجتماعية أو وظائف فرعية عنها مثل وظيفة انشاء الهوية " التأسيس" أو ترسيخ الايديولوجيا وغيرها، وهي وظائف قد تكون بديلة أو مساهمة في منح المعرفة البلاغية مساحة أوسع من حياتنا



وتفكيرنا، وقد نجدُ في الإيديوغراف محاولةً تجاوز هذه الثنائية، إذ يقَدِّم الإيديوغراف نفسه بوصفه منطقة عمل يتحرَّك فيها الإيديولوجي في ظلال البلاغي، أو يتسرب البلاغي عبر المنافذ الإيديولوجية.

فأَيُّ قدرةٍ تمتلكها إيديوغرافات مثل (الجوكر أو الذيل) في تحقيق وظائفها وتأثيراتها؟ إنَّ السؤال عن الوظيفة قد سُبِق في إطار هذه الدراسة عن الطبيعة التكوينية لهذا الإيديوغراف، فثمة عوامل خارجية مؤثرة في التكوين لكنها ذات صلة بالواقع العراقي من حيث التماثل في الأسباب والنتائج وهذا ما نجده في نموذج "الجوكر"، أو قد يخضع هذا التكوين لقانون استدعاء الاضداد مثلما وجدناه في "الذيل"، ثمَّ شغلت هذه الإيديوغرافات مساحةً مهمةً في تاريخ المجتمع العراقي سياسياً، واجتماعياً، واقتصادياً وثقافياً، حتى أصبحت قادرة على انشاء الهوية للجماعات المشتركة في التوجّه، وهنا لا بدّ من الإشارة الى أهمية مفهوم "الجماعة" للذي يشكّل محور مركزي هذه الدراسة تسهم الإيديوغرافات على تشكّله سوسيلوجياً، والجماعة مجموعة من الاشخاص تقوم بينهم علاقات اجتماعية منتظمة ويوجد بينهم جزءٌ من التعاون ويمكن التمييز بين أعضاء الجماعة وغيرهم وسمّة التميّز هي الشعور بـ(النحن)<sup>10</sup>، كما يرتبط مفهوم الجماعة بمفهوم النسق، فهم "عبارة عن نسق اجتماعي يتكوّن من مجموعة من الافراد، الذين يتفاعلون مع بعضهم البعض، ويشتركون في القيام ببعض الانشطة المشتركة"<sup>11</sup>، وقدرة هذه الإيديوغرافات على المساهمة في تشكيل هوية الجماعة تعني تمكّنها، وتمكّنها يعني انجاز وظيفتها البلاغية؛ فكيف يمكن لهذه الإيديوغرافات لغوياً أو لفظياً ان تسهم في انشاء الهوية؟

إن وصف هذه الإيديوغرافات (الجوكر أو الذيل) بأنها نتاج ايديولوجيا ساكنة غير قادرة على التحرك والانتقال هو أمر خلاف الامكان، لكنّ الممكن هو وصفها بأنها نتاج ايديولوجيا تتمتع بقدرة الانتشار وفرض ظروفها على الذين يشعرون بأنها تعبّر

عن ذواتهم في تشكيل الجماعة، وهذه القدرة متأتية من السمة أو الكيفية البلاغية التي تُصاغ بها هذه الايديولوجيا التي تحقّق جزءاً من وظائفها مثل وظيفتي التجمّع او التعبئة.

وهنا أوّد الإشارة الى العملية التساندية بين البلاغة وهي تنتج وظيفة الاقناع، والايديولوجيا عندما تحقّق وظيفتي التجمّع والتعبئة بفعل بلاغي تأسيسي، فكلّ وظيفة ايديولوجية تحتاج الى هذا الفعل البلاغي التأسيسي، ولذا حينما نتحدّث عن صناعة الهوية فإننا قد نختلف في المعطى التراتبي بين الذهاب الى ان بلاغة الاقناع تسبق بلاغة التأسيس أو أن يكون انشاء الجماعة وصناعة هويتهم منتج بلاغي يسبق الاقناع وهذا هو ما تؤمن به البلاغة التأسيسية "constitutive of rhetoric" عبر مقولاتها التي لا تهدف الى اقناع الجمهور بشكل مباشر من خلال توظيف الحجج واستعمالها، بل هي تعمل أولاً على تحويل الجمهور الى مجموعة مؤمنة بقرارات واحكام واحدة، وبمجرد انشاء الجماعة سيكون كل فرد متّبعا للقرارات كونه عضواً في هذه الجماعة، دون الحاجة الى حجج معينة مقنعة داعمة لصالح تلك القرارات، ومن ثمّ فإن البلاغة التأسيسية منطقياً تسبق بلاغة الاقناع، ويمكن ان يكون للبلاغة التأسيسية هذا التأثير، لأنها تعمل من خلال ايديولوجيا مشكّلة عبر شبكة من القنوات المترابطة التي تؤثر في الفرد معرفياً وتشكّل هويته وتحدّد رؤيته نحو العالم<sup>12</sup>، إذ " يتوجّب تأسيس هويات الجماهير قبل أن يصبح من الممكن مخاطبتها، إن التأسيس يسبق الاقناع، إلا أن الاقناع لا يزال ممكن الحدوث"<sup>13</sup>.

كيف يمكن فهم إيديوجرافية (الجوكر والذيل) بوصفهما هوية للجماعة؟ وهذه الهوية مستعارة أم هوية رمزية لتشكيل الجماعات البشرية على حد تعبير كينيث بيرك؟ في



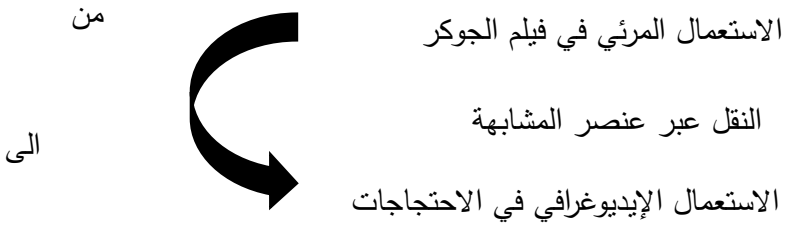
تحديد الاجابة عن هذين السؤالين، سيتكفل السؤال الثاني الاجابة عن الاول، ولذا سأكون منشغلاً في الاجابة عن الثاني لان تمامه يكفي اجابة السؤال الاول.

أقترح أن تكون هناك ثنائية اخرى تقابل ثنائية الرمز والاستعارة أو بعبارة أخرى، تكون حاضنة لهما هي ثنائية الرؤية والاستعمال، فالرؤية - في هذه الدراسة- هي إدراك الواقع أو النظر الى ما يتجسد في الواقع بأنه مفهوم متعالٍ هو "الرمز" الذي يشير ويعبر عن مجموعة من التجارب، وأقول متعال لأنه لا يتماهي مع تجربة فردية بل أنه يتعدى حدود الفردي ويشكل مجموعة التجارب والخبرات الانسانية، ولذا عندما يكون الرمز متعالياً فإنه لا يكون ملموساً مرتبطاً بالتداول والتجربة المحددة والمعينة، أما الاستعمال فهو الحالة التداولية لهذا الرمز وتحوّله من المفهوم المتعالي متعدّد الدلالات بحسب تلك الرؤية الى المفهوم الاستعمالي التداولي الذي توظفه الجماعات وتؤمن به، وكأنه أشبه بالانتقال من مرحلة الذهني الى مرحلة المادي الملموس.

سأعود إلى أولية الاستعمال في ثورة تشرين يوم الاحد 13 / 10 / 2019، وهي محاولة الشاب العراقي العشريني الذي ينتمي الى الفنون التشكيلية، اي انه يعرف معنى الفن والرمز ومدى تأثير الاستعارات والرموز في العالم، فاستحضار الحركة الاحتجاجية في فيلم " الجوكر" وارتداء بعض المتظاهرين قناع المهرج بوصفه رمزاً لرفض النخبة الحاكمة وطبقة الاغنياء، ظلّ راسخاً في ذهن المحتجّ العراقي ليكون تظاهرة بشكل رمزي وغير مألوف، لتحوّل الإيديوجرافات "الرموز" الى استعمال مألوف فهي تكتسب قوتها من تداولها الجماهيري لأنها غير مخصصة للنخبة السياسية.<sup>14</sup> لكنّ هناك فرقاً - كما بيّنتُ في الفقرة السابقة - بين الرؤية الى الإيديوجراف وهي حاضنة الرمز، واستعماله عبر الاستعارة، فالجوكر كإيديوجراف يحمل البعد الرمزي من حيث الرؤية، لكنّه يتحوّل الى طبيعة استعارية عند التوظيف والاستعمال عبر استحضار متخيّل لانتصارات آرثر فليك/ المهرج ومحاولة نقل التجربة السينمائية/ المرئية الى الواقع

العراقي، وهذا النقل قائم على المشابهة في التجريبتين " المرئية والواقعية" واسقاط المرئي على الواقعي، أو بفهم استعاري اخر أن يدعي الشباب المحتج دخولهم في شخصية المهرج / آرثر فليك المنتصر على الطبقة الحاكمة في مدينة غوثام، وهذا الادعاء الاستعاري هو حجة قائمة بذاتها.

ففي النقل يمكن تمثيله بالشكل الاتي:



فإذا كان النظر عبر النقل فهناك عنصر استبدال في نقل التجربة (تجربة الجوكر الساخط من الوضع الاجتماعي والسياسي المهيمن) من حقلها الاصلي الذي تواضعت عليه الى حقل مجازي جديد انتجته سياقات بلاغية اجتماعية جديدة.

وفي الادعاء يمكن تمثيله بالشكل الاتي:

الاستعمال الإيديوجرافي في الاحتجاجات داخل في جنسه الاستعمال المرئي (ادعاء تماثل الانواع) ♦

ثم أن الجوكر ثنائي الاستعمال أو التوظيف الايديولوجي، فإذا كانت الجماعة الاحتجاجية دشنت انتاج الجوكر بوصفه قيمة رمزية ضد الاضطهاد المجتمعي والسياسي، فإنه صار توظيفاً ايديولوجياً سلبياً ادّعت الجماعة المناوئة (السلطة واحزاب السلطة) بمنحه حمولة ايديولوجية أخرى هي حمولة الكافر أو الامريكي والمناهض للقيم الاسلامية الشيعية، فهذا التوظيف من قبل السلطة والاحزاب المساندة لها تمنح الجوكر انتماءً خارج الهوية، فضلاً عن التركيز على الانتاج المستمر لهذه الحمولة الفكرية عبر





الفييس بوك وقنوات التواصل الاجتماعية الاخرى، بالتأكيد على هذه الحمولة (الكافر - الامريكي - المناهض)

الامر يماثله مع الذيل في محور الانتقال بين الرمز والاستعارة، فهو إيديوغراف رمزي يحمل قيمة سلبية انتجت الجماعة المناهضة للسلطة او ضد السلطة والاحزاب المساندة لها، لما يدلّ عليه من التبعية في القرار وضعف القدرة في تجاوز تلك التبعية، وهذا الفهم الرمزي لم يغادره إيديوغراف " الذيل " بل ظلّ يرمز باستمرار ويعرّض بمن تعتقد الجماعات الاخرى بأنه لا يملك القرار بل هو مدافع عن المتبوع، ولا يتخطى تلك الرمزية، وهذه هي الرؤية في فهم الرمز، لكنّ " الذيل " من حيث الاستعمال يعود بنا الى ما نقرّه المفردة دلاليًا من ربط الذيل بالإهانة، وهو في ذيل ذائل: في هون شديد، ومجازا عند الزمخشري جاءنا أذيال من الناس وذبول أي أواخر منهم<sup>15</sup>، فعلاقة المشابهة بين ذيل القميص أي أواخره، والذيل التابع دفعت هذا الإيديوغراف الى العمل بين الصورة الجمعية للذيل رمزاً، والاستعمالات السياسية والفكرية والاجتماعية والاقتصادية له، وهنا يكون محور الادعاء أشدّ حرجاً من النقل، لأن الجماعات المضادة (المخالفة للمتهمين بالذيلية) تدّعي دخول جماعة " الذيل " في جنس المتبوع (سيد القرار) ليكون النوع (التابع/ الذيل) غير قادر على الانفكاك من تجنسيه المدّعى، أمّا النقل فقد ينتهي بانتهاء المشابهة وانفكاك عقد القرائن؛ وبين النقل والادعاء وفرضية الاستعارة استعمالياً والرمز رؤيويًا، ومن خلال ما تمتلكه الإيديوغرافات من احتضان بلاغي للمفهوم الايديولوجي، ارى أن هذه الإيديوغرافات قادرة على تحويل الايمان بها الى هويات تتمثل بها الجماعات وتعبّر عنها.

### داخل - خارج الجماعة

انتهت الفقرة السابقة عند العلاقة المتشابهة بين الإيديوغراف والهوية والجماعة، وسأفصّل القول بها الان في حدود موضوع الدراسة " الجوكر - الذيل ".

الانتماء للجماعات هو انتماء طوعي قائم على الايمان بايديولوجية هذه الفئة وممارساتها وخطاباتها، وبكل تأكيد لا يمكن للجماعات أن تتشكل من دون خطابات صريحة او ضمنية لفظية أو علامائية، لأن الخطاب يعطي تصوّراً مادياً عن طبيعة هذه الجماعات؛ لكنّ السؤال الذي يمكن ان يخترق هذا الفقرة، مَنْ هو الاسبق في الظهور الإيديوجراف أم الجماعة؟ وسأجيب - أيضاً - في حدود دراستي، وأقول إن الإيديوجراف أثبت قدرته على انتاج الجماعة وتقديم هوية صريحة لها، فمنذ عام 1944 في القمص المصورة كان "الجوكر" فرداً عابثاً لا نظامياً في الوجود العلني، لكنّه يمثّل جماعة تحمل وعي هذا الجوكر العدو للذود لباتمان، كما كانت مهمته ان يقدّم خطابات هذه الجماعة ويتكفّل بعرضها على الاخر المختلف، وما استمرار هذا التناسل والتعديل لشخصية الجوكر الا مؤشر على قوة حياة الإيديوجراف واستمرارها لأنها بدأت تمثّل الجماعة بشكل فعلي، فهناك من يتبنى سلوكها وممارساتها. وفي الاحتجاج الشعبي كان الجوكر يحضر ممارسة بلاغية تحمل ايديولوجيا رفض الاخر عبر الاحتجاج على سياسية الحكومات وسلطة المتنفذين وهي نقطة تركز الإيديوجراف ومن ثم تأسيس الجماعة التي تؤكّد وجودها من خلال التقابل مع جماعة أخرى حتى يبرز الاختلاف<sup>16</sup>، وهذا يعني أن هناك مسؤولية في انتاج الجماعة المتضادة او المساهمة في انتاج إيديوجراف آخر نقيض سيكون قاعدة لدخول او الخروج الجماعة. وهذا ما حدث مع "الذيل" فهو إيديوجراف ليس له امتداد زمني او مكاني كما ذكرت سابقاً، إذ أنّ ولادته علناً ارتبطت بعلاقة الفئة المحددة سياسياً بما هو خارج حدود البلد اي أن الولادة لا تتعدى مرحلة الاحتجاجات وجذوره لا تتعدى خطوات زمنية اكثر، أمّا مكانياً فهو مرتبط بالتجربة السياسية العراقية في بلد مبتلى بتعدّد ديني ومذهبي وسياسي، فارتضاء قبول الدخول في جماعة معينة يعني القبول بهوية موجبة، وعدم القبول لا يعني سلب الهوية، بل يعني ان تمنح هوية مفترضة يمنحها لك من وجد فيك مواصفات الدخول في



الجماعة حتى وإن ترفض الانتساب لهذه الجماعة، أمّا معيار الدخول والخروج من الجماعة فهو معيار الاعتقاد بما تعتقد به الجماعة وإن كان نسبياً، فالزمرة " الجماعة" هي موضوع اعتقاد قبل أن تكون موضوعاً علمياً، حيث يتغلب فعل "النحن" على العجز الفردي، وعندما لا تكتسب الجماعة صورة مثالية تغدو مخيفة، ولذا يخشى الفرد من ان يخضع لها.<sup>17</sup>

هنا يمكن أن نضع مخططاً لهذه العلاقة بين الإيديوغراف والهوية والجماعة.

الإيديوغراف ← الجماعة ← الهوية

### عوامل تشكّل الجماعة

ممّا يثيرنا في إيديوغرافات مثل "الجوكر والذيل" هي جماعات شكّلتها مجموعة عوامل خارجية وداخلية، فضلاً عن قيام استدعاء الضد بدوره في هذا التشكيل، وقد تكون خصائص هوية الجماعة إسقاطيه، ولذا فإن الخروج أو الدخول في الجماعة قد لا يتغلب عليه الوعي، بل هو فرض وجود سمة مشتركة مع هذه الجماعة يسوغ للآخرين وصفهم شخصاً أو سلوكاً أو مؤسسة بأنه داخل الجماعة وليس خارجاً عنها، أو هناك فرض الانتماء أو الانتساب لها عبر الخصائص التي يحددها الضد ولا تحددها الجماعة نفسها، ولذا يصير من الضروري بحث عوامل تشكّل الجماعتين (الجوكر - الذيل) وخصائصها واشتراطات الدخول فيها أو الخروج منها.

أولاً: الرغبة في تشكيل جماعة تعبّر عن هوية (النحن)، وهذه الجماعة تشتق لنفسها وجوداً من الحشد / الجماهير وتظل تبحث عن وجود علاقات تفاعل أو سمات مشتركة قد لا يتّصف بها الحشود فقط الجماعة المتشكّلة، ومن ثمّ تعمل على ترسيخ وجودها

واهدافها حتى يمكن القول إنها جماعة اصحاب الحق او قول الحقيقة.<sup>18</sup> مقابل جماعة ال"هم" الضد أو غيرهم.

ثانياً: وجود تطابق جزئي أو كلي بين الإيديوجراف والجماعة المشكّلة، سواء هذا التشكّل من داخل الجماعة أو من فرضيات الجماعة المضادة. مثلاً، شعور بعض المحتجّين بوجود تطابق بين شخصية الجوكر (آرثر فليك) في فيلم الجوكر 2019 وما يمرّ به حالهم من حيث الهدف ونوعية العدو كان مبرراً لوجود الجماعة أو الانتماء لها افتراضاً، وهذا شكل من أشكال بلاغة الفعل الرمزي كما قدمه كينيث بيرك عبر مفهوم التماهي Identification حيث "ركّزت رؤية بيرك للبلاغة بوضوح على الجاذبية القوية للكلمات وقدرتها على تعزيز الالفة عبر التماهي".<sup>19</sup>

ثالثاً: قد يكون انتاج التسمية / الإيديوجراف بما تحمل من صفات ايديولوجية وخصائص رمزية بلاغية قد تكون في نظر المشمولين بالانتماء انها خصائص واصطلاحات سلبية أنتجتها الجماعة المضادة سواء مع الجوكر ومحاولة ربطه بالمكان الام الذي انتجت فيه الشخصية وهو الولايات المتحدة، وما تمثّله هذه الشخصية من عبث وتهريج واللانظامية، ومع "الذيل" ينتقل الإيديوجراف من الجد الى السخرية من جماعة الذيل، من ثمّ منح المصطلح دلالة اوسع حتى يتسع ليشمل مجموعة من الجماعات ولا يمكن ان تكون جماعة واحدة، اذ لا تنطبق عليهما السمات المشتركة، وهذا بان في العديد من الإيديوجرافات المرئية، ومنها ما تعبّر عن تبادل تهمة الذيل:



وتطلّ العديد من الاسئلة المرتبطة بالايديوغراف ومدى مساهمته في صناعة بلاغة تأسيس الهوية ومن ثمّ انجاز مجموعة من الوظائف البلاغية منها ما يتعلّق بالرباط بين الخطاب والمجتمع وهي الوظيفة الاجتماعية، أو تدعيم وتنشيط البعد الايديولوجي عبر تحقيق الوظيفة المعرفية للبلاغية، وهذه وظائف ظلّت مهمشة في ظل ثبات وقوةوظيفتين الرئيسيتين "التخييل والافتناع" وهذا ناتج عن الاهتمام بنوعية الخطابات، فالاهتمام بخطاب الايديوغراف يجعلنا ضمن مساحة المجتمع واحتياجاته، ومحاولة كشف التحيزات البلاغية التي تنتجها الجماعات عبر خطاباتها.

### مراجع الدراسة العربية

- أساس البلاغة، جار الله الزمخشري، طبعة جديدة منقحة ومصححة، دار احياء التراث العربي، بيروت - لبنان.
- أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، علّق حواشيه محمد رشيد رضا، دار المعرفة، لبنان ط1 - 2002.

- الخطابة، أرسطو، ترجمة عبد الرحمن بدوي، طبعة دار الشؤون الثقافية في بغداد. 1980.
- مدخل الى علم الاجتماع، محمد الجوهري، القاهرة، ط 1، 2007.
- معجم تحليل الخطاب، بإشراف بارتيك شارودو ودومينيك منغو، ترجمة عبد القادر المهيري وحمادي صمود، دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة -تونس، 2008.
- معجم مقاييس اللغة، احمد بن فارس، تحقيق وضبط عبد السلام محمد هارون، دار الكتب العلمية، إيران - قم.
- مفتاح العلوم، السكاكي، ضبطه وكتب هوامشه نعيم زرزور، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان، ط2، 1987.
- موسوعة البلاغة، تحرير توماس أ. سلوان، ترجمة نخبة، إشراف وتقديم عماد عبد اللطيف، المركز القومي للترجمة، ط1 - 2016.
- في تحليل الخطاب، حاتم عبيد، دار ورد الاردنية، ط1، 2013.
- النظام السياسي لمجتمعات متغيرة، هينتنغون، ترجمة سمية عبود، بيروت، دار الساقى، 1993.
- الهوية والهويات " الفرد - الزمرة - المجتمع"، تحرير كاترين البيرن وجان كلود روانو بوريالان، ترجمة: اياس حسن، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق - 2010.

### المراجع الاجنبية

- Janis L. Edwards and Carol K. Winkler. Representative form and the visual ideograph: The Iwo Jima image in editorial cartoons. Quarterly Journal of Speech.1997
- McGee .The "ideograph": A link between rhetoric and ideology. Quarterly Journal of Speech.1980.



- Peter van Berg .constitutive of rhetoric. Quarterly Journal of Speech.1980.

♦ - الایتوس Ethos كلمة يونانية ترتبط بالشخص المتكلم وصورته وعاداته وصفاته، وقد وضعها أرسطو أحد المفاهيم الثلاثة التي قَدِّمها في بناء حجج الخطاب التي يسميها بالتصديقات وهي، اللوغوس: تتعلّق هذه الحجة بلغة الخطاب، فهي تتوقف على القول نفسه، والبايتوس: التي تمثّل المخاطب فهي تهيئة السامع واستدراجه نحو الأمر، أمّا الایتوس: فتتعلّق بالمتكلم، فهي حجة مرتبطة بكيفية المتكلم وصفاته أو اخلاق القائل، فالخطيب يقنع بالأخلاق إذا كان كلامه يلقى على نحو يجعله خليفاً بالثقة فخلقه أقوى عناصر الاقناع لديه. الخطابة، أرسطو، ترجمة عبد الرحمن بدوي: 29-30، فهو يبني صورته داخل الخطاب، ولذا فالایتوس " عند أرسطو مفهوم خطابي وليس صورة للمتكلم الذي يسكن خارج الخطاب" في تحليل الخطاب، حاتم عبيد: 117. أمّا الایتوس الخطابي ( Ethos Discursive) فهو من نتاج ما قَدِّمته روث أموسي وتعني به صورة الذات المنتجة داخل الخطاب، وتطوّر هذا المفهوم في أعمال مغنيو حيث يمنح المتلفظ نفسه موقعاً مؤسّساتياً في خطابه، ينظر: معجم تحليل الخطاب، باتريك شارودو ودومينيك مغنو، ترجمة عبد القادر المهبري، حمادي صمود: 231.

<sup>1</sup> - يمكن الاطلاع على صياغة هذا الخطاب وكيفية بناء الحجة والنصيحة عند رئيس الوزراء عادل عبد المهدي يوم 3 / 10 / 2019.

<sup>2</sup> - ينظر: النظام السياسي لمجتمعات متغيرة، هينتون، ترجمة سمية عبود: 123.

<sup>3</sup>- McGee .The "ideograph": A link between rhetoric and ideology. Quarterly Journal of Speech.1980: p 5.

<sup>4</sup>- ibid: p 8 .

♦ وهي معركة التي نشبت عام 1945 بين الولايات المتحدة وإمبراطورية اليابان وانتهت بانتصار الولايات المتحدة، ورفع الجنود العلم على جبل سوريباتشي في اليابان.

<sup>5</sup>- Janis L. Edwards and Carol K. Winkler. Representative form and the visual ideograph: The Iwo Jima image in editorial cartoons. Quarterly Journal of Speech.1997: p 290.

<sup>6</sup>- McGee .The "ideograph": A link between rhetoric and ideology. Quarterly Journal of Speech.1980: p 5.

<sup>7</sup> - قاموس اكسفورد الحديث: 413.

- 8 - معجم مقاييس اللغة ابن فارس: "ذيل"
- 9 - المصدر نفسه: "ذئ"
- 10 - ينظر: مدخل الى علم الاجتماع، محمد الجوهري: 77.
- 11 - المصدر نفسه: 30.
- 12- Peter van Berg .constitutive of rhetoric . Quarterly Journal of Speech.1980: p 5
- 13 - البلاغة التأسيسية، مقال ضمن موسوعة البلاغة ج3، تحرير توماس.أ. سلوان، ترجمة نخبة: 296.
- 14- Janis L. Edwards and Carol K. Winkler. Representative form and the visual ideograph: The Iwo Jima image in editorial cartoons. P: 297.
- \* النقل في الاستعارة يحقق غرضاً او معنى من المعاني فتكون الاستعارة ذات فائدة، وتنقل عن المسمّى الاصلي الى شيء آخر ثابت ومعلوم فتجريه عليه، اسرار البلاغة، الجرجاني: 34، أما الادعاء في الاستعارة فهو أن تذكر أحد طرفي التشبيه وتريد به الطرف الآخر، مدعياً دخول المشبه في جنس المشبه به:" مفتاح العلوم، السكاكي: 369.
- 15 - أساس البلاغة، الزمخشري: 248.
- 16 - مدخل الى علم الاجتماع: 89.
- 17 - ينظر: الهوية والهويات " الفرد - الزمرة - المجتمع"، تحرير كاترين البيرن وجان كلود روانو بوربالان، ترجمة: إياس حسن: 149
- 18 - مدخل الى علم الاجتماع: 89.
- 19 - موسوعة البلاغة، ج2: 238.